أحمد عبدالمنعم عيد حسن
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف الكويتية

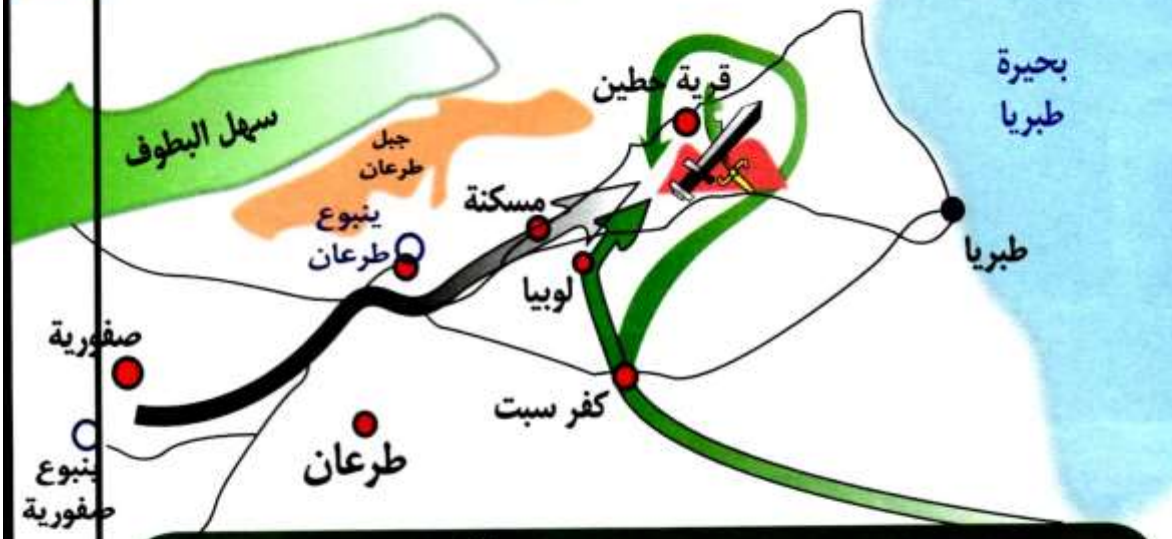

حطين.. يوم من أيام الله

كان يوم حطين يوما من أيام الله، أعلى الله تعالى فيه كلمة الحق، ودحر كلمة الباطل، وأنهى فيه سطوة الصليبيين على بيت المقدس بعدما احتلوه قرابة المئة عام، أسالوا فيها الدماء، وهتكوا الأعراض، ونهبوا الخيرات، وارتكبوا كل الفظائع التي يستحيي كثير من مؤرخي الغرب من ذكرها، فقد كانوا كما وصفهم جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب: «كانوا لا أخلاق لهم، وليس عندهم قيم، بل فجرة أشرارا منحلين فاسقين، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها، إذ لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر»[1].

وقعت معركة حطين في عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م في منطقة تسمى بسهل حطين، وهي منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر ثلاثمائة متر، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين.

كان الجو في ذلك اليوم حارا، فعسكر صلاح الدين حول طبرية ومنع الصليبيين من الوصول إلى الماء، مما زاد جنود العدو شقاوة، وجعلهم في حالة ضعف قبل المعركة، وعندما جاء الوقت وظن صلاح الدين أن النزال قد حان، أخذ يحمس المسلمين ويحدثهم عن الجهاد وفضله، وما وراء الجهاد من أجر وغنيمة أو شهادة في سبيل الله، فدبت الحماسة في نفوس المسلمين، وقويت عزيمتهم في مواجهة الصليبيين.

في المقابل كان جيش الصليبيين في حالة ضعف ظاهرة فقد باتوا ليلتين من غير ماء أضف إلى ذلك شدة الحر والخوف الذي ألقاه الله في نفوسهم.

وعندما بدأ الهجوم استمات المسلمون في القتال، وحملوا على الصليبيين حملة شديدة كان من نتائجها في البداية أن فر ريموند أمير طرابلس بجنده من المعركة بعد أن أدرك أن نهايتهم قد حانت، فأحدث ذلك حالة من اليأس والضعف في نفوس الصليبيين، فألقى الكثير منهم أسلحتهم واستسلموا للمسلمين.

في الوقت نفسه قام المسلمون بإحراق العشب اليابس في المنطقة، وكانت الريح في مواجهة الصليبيين، فاجتمع عليهم الدخان والحر والعطش وشدة القتال، مما اضطرهم إلى التراجع إلى أعلى الجبل، ليحتموا به ويحموا ملكهم، ولكن المسلمين أحاطوا بهم من كل الجهات، وبقي الأعداء بلا حيلة مما جعل الملك الأفضل يعبر عن ذلك بقوله:

«هزمناهم، فنهاه صلاح الدين عن ذلك وقال: ما هزمناهم حتى نسقط تلك الخيمة، أي خيمة الملك التي نصبت له أعلى الجبل، وأخذ صلاح الدين في تشديد هجماته وما هي إلا لحظات حتى سقطت تلك الخيمة، ونزل صلاح الدين وسجد شكرا لله تعالى»[٢].

وقد عدت خسائر الصليبيين في هذه المعركة من أفدح الخسائر حتى قيل: لو نظرت إلى الأسرى قلت: لا يوجد قتلى، وإذا نظرت إلى القتلى قلت: لا يوجد أسرى.

بالإضافة إلى أسر ملك مملكة بيت المقدس جاي لوزينان وأرناط أمير الكرك، فأحسن صلاح الدين إلى الملك جاي، وقتل أمير الكرك أرناط وفاء بنذره الذي نذره مرتين أن يقتله إن ظفر به: المرة الأولى: عندما عزم المسير إلى مكة والمدينة المنورة ليحتلهما، والثانية: عندما قتل الحجيج، وقال له: «هأنذا أنتصر لمحمد ﷺ، وعرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سيفه وقتله»[٣].

هذه المعركة دارت في يوم واحد وكتب الله النصر للمسلمين فيها، وهذا النصر إنما جاء بعد إعداد استمر لأعوام قبل المعركة، كافأ الله بعده المسلمين، فكانت المعركة فاصلة لها ما قبلها، ولها ما بعدها.

ولاستخلاص الدروس من هذه المعركة لابد من دراسة الإعداد المسبق والتجهيز للمعركة، وكيف تعامل صلاح الدين مع الأوضاع البائسة التي كان عليها المسلمون مما جرأ الصليبيون عليهم، فمزقوا دولة الإسلام وأقاموا الممالك والإمارات في داخل دولة المسلمين، كإمارة الرها وأنطاكيا وطرابلس وعسقلان، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس ومنع بسبب ذلك المسلمون من الصلاة في المسجد الأقصى قرابة المائة عام؟

الإعداد

يعلم صلاح الدين أن سنن الله ماضية ولا تحابي أحدا، وأن الله كما أمر المؤمنين بالاعتماد عليه، أمرهم كذلك بالأخذ بالأسباب وإعداد العدة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:٦٠).

وأخذا بهذه السنة، وقياما بهذا الأمر، أعد صلاح الدين جيشا من المدربين الأشداء، ووفر لهم ما يحتاجون من السلاح والمؤن استعدادا لهذه المعركة، فاختار الرماة ودربهم تدريبا جيدا، وزودهم بالنبال الكافية وقد بلغ ما فرقه من النبال أربعمئة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة في ساحة القتال وميدان المعركة، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام، لمن تنفد سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضمانا لاستمرار القتال والرمي وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله تعالى»[٤].

كما قام بتوحيد الأمة وجمعها على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والجهاد في سبيله، مما كان له أكبر الأثر في دفع المقاتلين من المسلمين للتوافد إلى صلاح الدين والانضمام لجيشه.

وعمل صلاح الدين على بث روح الجهاد في نفوس المسلمين، فبعد الحملات

الصليبية وما جرى للمسلمين بسبب تفشي الأنانية في نفوس قادة الإمارات الإسلامية في ذلك الوقت، وتغليبهم للمصلحة الشخصية على حساب الدين والأمة، عمد صلاح الدين إلى إصلاح ذلك ببث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة من جديد، فكان يقول لجنده إذا قاتل أو أغار على أعدائه: «لا تقاتلوا عني وقاتلوا في سبيل الله»[٥].

وحرص صلاح الدين على توثيق صلة الجند بالله تعالى، فكان يحثهم على كثرة ذكره، وكان يحضر العلماء والفقهاء والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكرا كثيرا، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو.

كما استعان صلاح الدين بالعلماء، وقربهم منه، وأنزلهم منزلتهم، وكان يأخذ بمشورتهم، بل لقد استعان ببعضهم في إدارة بعض البلاد، وكان أشهر العلماء قربا من صلاح الدين القاضي الفاضل الذي كان يرافقه في حله وترحاله، حتى قال صلاح الدين عن سبب فتحه للبلاد بعد فضل الله -عزوجل-: «ما فتحت البلاد بالعسكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل»[٦].

ولهذا لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء الذين كانوا يهيئون الجبهة الداخلية، ويدعون له في الجمع، وكانوا عاملا مهما في إعداد الأمة جهاديا، وساهموا مساهمة عظيمة في رفع الروح المعنوية للمسلمين قبل حطين وبعدها.

وكان صلاح الدين بالرغم مما أعده، والأسباب التي اتبعها، وأخذ بها، كان دائم الدعاء والمناجاة، قال القاضي الفاضل عن حال صلاح الدين مع الله ومناجاته له: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك وأنت حسبي ونعم الوكيل، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول[٧].

وبقدر اهتمام صلاح الدين بالجبهة الداخلية كان اهتمامه بالعدو ومعرفة أحواله ودراستها ومعرفة كيفية الاستفادة منها، فقد بث جواسيسه في إمارات الصليبيين، ووصل إليه أن الخلافات بينهم كثيرة والثقة بينهم منعدمة وكل أمير منهم يستريب من الآخر ويخشى غدره، وكان من نتاج تلك المعرفة أن جند زوجة صاحب برزية أخت زوجة أمير أنطاكيا بوهمند وقيل: جند زوجة بوهمند نفسها، وكانت تدعى سيبيلا، فقد كانت تخبره بتحركات الصليبيين وخططهم أولا بأول، يقول ابن الأثير: «إن أميرة أنطاكيا كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التي تؤثر»[٨].

كما أفاد علم صلاح الدين بحالة الخلاف وعدم الثقة بين أمراء الحرب الصليبيين أن حيد الأمير ريموند أمير طرابلس وقيل اتفق معه على الانسحاب من أرض المعركة، وبالفعل عندما بدأت المعركة أخذ بالانسحاب وفتح له المسلمون الصفوف حتى هرب بجنده، وهذا إن دل فإنما يدل على حنكة صلاح الدين العسكرية ومهارته القيادية رحمه الله تعالى.

ما بعد المعركة

بعد المعركة قويت شوكة المسلمين وازدادت رهبتهم التي ألقاها الله في نفوس الصليبيين، فقد أسر الكبراء والأمراء، وتساقطت حصونهم وقلاعهم حصنا تلو حصن وقلعة تلو قلعة، فاستولى على قلعة طبرية، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجدي، وبعدها منَّ الله عليه بفتح عكا دون قتال بعدما خرج إليه أهلها يتضرعون يطلبون منه الأمان، كما فتح الناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت وغيرها من بلاد الساحل إلى أن توجت هذه الفتوحات بفتح بيت المقدس في اليوم السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ من الهجرة الموافق الثاني عشر من أكتوبر عام ١١٨٧ميلادية، لتكون بذلك معركة حطين مفتاح بيت المقدس بفضل الله تعالى.

وتبقى هذه المعركة يوما من أيام الله تعالى، والتي جعلها الله فرقانا بين الحق والباطل كبدر واليمامة والقادسية واليرموك وعين جالوت.

وتبقى كذلك مذكرة للمسلمين بأسباب فوزهم وعزهم وأن الأخذ بالأسباب دين كما أن الاعتماد على الله دين فكلاهما مأمور به.

الهوامش

١- حضارة العرب جوستاف لوبون ص٣٢٨.
٢- صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية ص٥٠٤.
٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١٢٩.
٤- جهود صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية ص٥٠٧.
٥- صلاح الدين الفارس المجاهد والملك العادل ص٢٦٣.
٦- شذرات الذهب، ج٤، ص٣٢٧.
٧- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٠.
٨- الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٦.